

كيف ساهمت هذه السيدة في ازدهار طريق الحج؟... حكايات "مبهجة عن" درب زبيدة

على مدار التاريخ الإسلامي، لعب طريق "الكوفة-مكة" دوراً مهماً في نقل الحجاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، ولاقى اهتماماً كبيراً من قبل الخلفاء ورجال الدولة العباسية. لكن ذلك لم يمنع تعرضه لعبث قُطّاع الطرق من القبائل وبعض الفرق السياسية الخارجة عن طاعة الدولة.

[يذكر](#) محمد المعلم، في كتابه "الدرب السلطاني... طريق الحج البري القديم المسمّى درب زبيدة"، أن هذا الطريق عُرف في ما بعد باسم 'درب زبيدة'، نسبةً إلى زبيدة بنت جعفر المنصور وزوجة الخليفة هارون الرشيد، لقيامها بأعمال كثيرة على مساره، لا تزال آثارها باقية حتى اليوم بالقرب من مكة المكرمة، منها حفر بئر مياه 'عين زبيدة'.

تعبيد الطريق في عهد الأمويين

وبحسب المعلم، كان طريق "الكوفة-مكة" معروفاً قبل العصر الإسلامي، حيث كانت الحيرة عاصمة المناذرة بالقرب من الموقع الذي قامت فيه الكوفة في ما بعد سنة 14هـ، وربما كانت القوافل التجارية تخرج عبر هذا الطريق من مكة والمدينة وتتجه إلى الحيرة، حيث كانت توجد على الطريق مناهل للمياه قبل الإسلام، وقد توقف في بعضها الجيش الإسلامي بقيادة سعد بن أبي وقاص، قبل دخوله العراق.

... "الكوفة-مكة" معروفاً قبل العصر الإسلامي، حيث كانت الحيرة عاصمة المناذرة بالقرب من الموقع الذي قامت فيه الكوفة في ما بعد سنة 14هـ، وربما كانت القوافل التجارية تخرج عبر هذا الطريق من مكة والمدينة وتتجه إلى الحيرة، حيث كانت توجد على الطريق مناهل للمياه قبل الإسلام، وقد توقف في بعضها الجيش الإسلامي بقيادة سعد بن أبي وقاص، قبل دخوله العراق.

وبعد دخول العراق وانتشار الإسلام في المشرق، انتظم استخدام هذا الطريق، وتحولت بعض مناهل المياه وأماكن الرعي الممتدة على دربه إلى محطات رئيسية، وبدأ الطريق يزدهر بالتدريج منذ عصر الخلافة

.الراشدة وحتى نهاية العصر الأموي

ويذكر الدكتور أحمد بن هاشم البدرشيني، في كتابه "دروب الحج إلى الحرمين الشريفين في العصور الوسطى"، أن الخلفاء الأمويين اهتموا بهذا الطريق، ففي سنة 104هـ/722م، أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك عامله على الكوفة عمر بن هبيرة، بتعبيد طريق "الكوفة-مكة"، وأن ينشئ فيه المحطات ويحفر الآبار، لأن الحجيج كانوا يجدون صعوبةً في الحصول على الماء.

منارات وبريد وآبار مياه على درب الحج العراقي

وبانتقال مركز الخلافة من الشام إلى العراق في العصر العباسي (132-656هـ)، أصبح الطريق حلقة اتصال مهمةً بين عاصمة الخلافة في بغداد والحرمين الشريفين وبقية أنحاء الجزيرة العربية وحتى اليمن، لذا أعطى خلفاء بني العباس جُلَّ اهتمامهم لتأمين هذا الطريق، كما كانت للأمرء والوزراء والقادة والوجهاء إصلاحات أخرى كثيرة عليه.

وبحسب المعلم في كتابه المذكور آنفاً، أكمل كلٌّ من أبي جعفر المنصور (سنوات حكمه: 136-158هـ)، وابنه المهدي (158-169هـ)، ومن بعدهما هارون الرشيد، ما بدأ ببنائه الخليفةُ العباسي الأول أبو العباس السفاح (132-136هـ)، وذلك بتزويد الطريق بالمرافق المهمة والتسهيلات اللازمة من أجل راحة الحجاج والمسافرين والتجار والجنود والموظفين في الدولة، ومنها بناء أحواض المياه وحفر الآبار وإنشاء البرك وإقامة الأميال والمنارات، كما أقدموا على توسيع مسار الطريق وإخلائه من العوائق الطبيعية والصخرية بحيث يكون صالحاً للاستخدام.

وفي عام 166هـ، أمر المهدي بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن وبغداد وذلك لأول مرة، إذ لم يسبقه أحد من الخلفاء إلى هذا العمل، وقد استُخدمت الجمال والبغال لهذا الغرض، وكان له أثر كبير في ربط الحكومة المركزية في بغداد بجميع أنحاء الجزيرة العربية عبر طرق مواصلات راقية التنظيم في تلك الفترة.

وعلى المنوال نفسه سار هارون الرشيد (179-193هـ)، وقد قسّم سنوات خلافته بين محاربة الأعداء في سنة، وزيارة الأماكن المقدسة في السنة

ويحسب سامي الصقار، في [دراسته](#) "درب زبيدة أبرز طرق الحج في التاريخ"، استمر الحُجاج في استخدام هذا الطريق حتى أواخر العصر العثماني، لكنه تعطل بعد ذلك وصار حجاج العراق يستقلون البواخر من البصرة إلى جدّة، غير أن الحكومة العراقية أعادت فتحه، وعقدت اتفاقيةً مع الحكومة السعودية سنة 1353هـ/1935م، لاستخدام السيارات عبره، برغم أنه لم يكن مُعدّداً.

محمد شعبان

موقع رصيف 22